الأداء النسوي بين العصر الجاهلي وعصر صدر الإسلام

مستل من رسالة ماجستير بعنوان :

السمات الفنية للشعر النسوي بين الجاهلية وصدر الإسلام
(شعر الرثاء نموذجًا)

Feminist performance between the pre-Islamic era and the era of early Islam

Retrieved from search:

Artistic features of feminist poetry between pre-Islamic times and early Islam
(Elegy poetry as an example)

إعداد الدارسة

تقوى أشرف سعد عبد الوهات

طالبة ماجستير بقسم الدراسات الأدبية – كلية دار العلوم – جامعة الفيوم

تحت إشراف

أ.د/ محمد مصطفى منصور
أستاذ الأدب العربي المتفرغ
كلية دار العلوم – جامعة الفيوم
مشرفًا رئيسًا

أ.د.م/ بيومي محمد طاحون
أستاذ الأدب العربي المساعد
كلية دار العلوم – جامعة الفيوم
مشرفًا مشاركًا

٢٠٢٥م – ١٤٤٦هـ

مستخلص:

اتخذ الرثاءُ في العصرِ الجاهليِّ شكلًا خاصًّا، نظرًا لتلك الحياةِ التي كانوا في كنفِها وتلك المعتقداتِ التي ظلّتْ عالقةً في أذهانِهم وعدمِ إيمانِهم بفكرةِ الموتِ والبعثِ، فكانت قصيدةُ الرثاءِ عندهم مختلفةً عن قصيدةِ الرثاءِ في عصرِ صدرِ الإسلامِ، حيثُ اتخذَ الندبُ والتأبينُ والبكاءُ شكلًا مختلفًا في الجاهليةِ عمَّا جاءَ في صدرِ الإسلام، فجاء الإسلامُ وهذَّب تلك المعتقداتِ وما كان يحدث في الجاهلية، فهناك بعضُ العاداتِ التي هذبها الإسلامُ وأخرى ظلتْ كما هي لتناسبَها مع مبادئِ الدينِ الإسلاميِّ الجديدِ والنفسِ الإنسانيةِ وهناك ما محاهُ الإسلامُ لترسيخ مبادئِه الجديدةِ التي تحفظُ كرامةَ الإنسانِ وتليق به.

Abstract

Women's performance between the pre-Islamic era and the early Islamic era

Elegy in the pre-Islamic era took a special form, due to the life they lived in and the beliefs that remained stuck in their minds and their lack of belief in the idea of death and resurrection. Their elegy poem was different from the elegy poem in the early Islamic era, where lamentation, eulogy and crying took a different form in the pre-Islamic era than what came in the early Islamic era. Islam came and refined those beliefs and what was happening in the pre-Islamic era. There are some customs that Islam refined and others that remained as they were due to their compatibility with the principles of the new Islamic religion and the human soul. There are also those that Islam erased to establish its new principles that preserve human dignity and are appropriate for it.

مقدمة البحث:

لقدْ أبدعَ العربُ في أدبِهِمْ؛ لوضعِ ميراثٍ زاخرٍ تركوهُ لنا، فكانَ أدبُهُمْ مرآةً عاكسةً لحياتِهِمْ ومعيشتِهِمْ ومشاعرِهِمْ، فنفسوا عنها منْ خلالِ قصائدِهِمْ التي تعدُّ منْ أروعِ عُيونِ الشعرِ العربيِّ القديمِ في التعبيرِ عنْ مصداقيةِ ما عاشُوهُ، وما فرضَتْهُ عليهِمْ البيئةُ الجاهليةُ، وقدْ نبغَ في هذا الجوِّ شاعراتٌ تكونتْ قرائحُهُنَّ الأدبيةُ بسببِ ما عِشْنَه منْ فقدِ الأحبةِ (الأبِ- الأخِ- الزوجِ- الابنِ)؛ فنجدُ المرأةَ في العصرِ الجاهليِّ إذا فقدَتْ عزيزًا عليها نتيجةً للحربِ أوْ المرضِ أوْ لقضاءِ اللهِ عزَّ وجلَّ تفجعُها المصيبةُ فتلطُمُ الخدودَ، وتقصُّ الشعورَ، وتنظمُ قصائدَ شعريةً ومقطوعاتٍ حزنًا على الفقيدِ، وتبثَّ الشاعراتُ آلامَهُنَّ وعواطفَهُنَّ، ويُعددْنَ شمائلَ المرثيِّ ومحاسنَهُ في تلكَ القصائدِ، فكانتْ أشعارُهُنَّ مليئةً بالتجاربِ الصادقةِ، ثمَّ بعدَ ذلكَ لبستْ أشعارُ النساءِ عباءَةَ الدينِ الإسلاميِّ، وتزينتْ بمعانيهِ الساميةِ وتجاربهِ الصادقةِ التي يغمرُهَا الإيمانُ ويحتويها الصبرُ والسُّلْوانُ: فالخنساءُ -مثلًا- عندما كانتْ في الجاهليةِ نجدُ في أشعارِها النَّدْبَ والتأبينَ عندما كانتْ ترثي والدها وأخويْها صخرًا ومعاوية، وتُحُثُّ على الأخذِ بالثأرِ، ثمَّ جاءتْ في العصرِ الإسلاميِّ ويتملَّكُهَا شعورُ الإيمانِ والجهادِ في سبيلِ اللهِ، فكانتْ تَحُثُّ أبناءَهَا على الجهادِ في سبيلِ اللهِ، وعندما استُشْهِدَ أولادها الأربعةُ، كانتْ تصبّرُ نفسها من فجعَ المصيبةِ وهولِها، فكانَ للفقدِ أثرُهُ الواضحُ في شعرِ النساءِ في الرثاءِ، ومدى مِصدَاقيةِ القولِ في القصائدِ والمقطوعاتِ التي تشكلتْ منْ خلالِ الصورةِ الشعريةِ للشاعرةِ بوَاسطةِ البيئةِ والثقافةِ، سواءٌ طبيعةُ البيئةِ الجاهليةِ أوْ طبيعةُ البيئةِ الإسلاميةِ وأسلوبها في عرضِ تلكَ البكائيات التي تختلف فيها عن الرجلِ، والمرأة بلا ريب أرق عاطفةً وشعورًا.

وقد استُلَّ هذا البحث من رسالة ماجستير بعنوان «السمات الفنية للشعر النسوي بين الجاهلية وصدر الإسلام (شعر الرثاء نموذجًا)» وهو بحث اهتم بدراسة السمات الفنية لشاعرات العصر الجاهليّ والإسلاميّ في قصائد الرثاء وذلك من خلال عرض تفصيلي للجانب الموضوعي لقصائد الشاعرات في الرثاء في ذلك العصرين ثم تَبِعَه الجانب الأدائي ثم الجانب الفني الذي اهتم ببيان فنية الصورة الشعرية وتَبِعَه جانب الإيقاع، وكان الأداء النسويّ جانب مهم في تلك الدراسة حيث اهتم بيان أداء النساء الشاعرات في عصري الجاهلية وصدر الإسلام وإبراز عنصر المقارنة بينهن من خلال ثلاثة مباحث:

المبحث الأول: صفات المرثي ومناقبه.

المبحث الثاني: ظاهرة الدعاءِ للموتى بِالسُّقْيَا والرحمةِ.

المبحث الثالث: عاداتُ النساءِ في الرثاء.

المبحث الأول :صفات المرثي ومناقبه

ظلت الشاعرةُ تعدد مآثرَ المرثي ومناقبَه التي تسمو به إلى أعلى المراتبِ لتبيِّنَ للناسِ قيمةَ ما فقدَتْه بموتِه، فكلُّ عصرٍ يتميزُ بصفاتِ أهلِه، فمثلًا العصرُ الجاهليُّ يلازمُه صفاتُ الشجاعةِ والكرمِ والافتخارِ بالنسبِ والسيادةِ والفصاحةِ والبيانِ وصفاتٌ أخرى، ولكن تلك الصفاتُ ظلت بارزةً في هذا العصرِ نظرًا للسياقِ الاجتماعيِّ والبيئيِّ الذي كانوا فيه، وعندما جاء الدينُ الإسلاميُّ الجديدُ لبست تلك الصفاتُ عباءةَ الدينِ الإسلاميِّ وتطبعَتْ بطباعِه الحسنةِ، وزادت عليهم صفاتٌ أخرى تنمو بالنفسِ البشرية تحدَّثَتْ بها الشاعراتُ، كالعدلِ والوفاءِ والبرِ والتقوى والخيريةِ والصدقِ والرحمةِ، وسنتطرقُ لهذه الصفاتِ بشيءٍ من التفصيلِ.

جمالُ الوجه:

كانت النساءُ في الجاهليةِ تهتمُ بالشكلِ والهيئةِ، فتُؤَبِّنُ المرثيَّ بتلك الصفةِ لتبرزَ رشاقتَه وجمالَ وجهِه، فتشبهُهُ بالبدرِ لبراقتِه وصفاءِ وجهِهِ الذي لم يكن به ندبٌ أو أثرٌ لجرحٍ وذلك كما قالت «الخَنْسَاءُ» وفي وصفِ «صخرٍ» في (البيت٢٦):

أَغَرُّ أَزهَرُ مِثلُ البَدرِ صورَتُهُ صافٍ عَتيقٌ فَما في وَجهِهِ نَدَبُ

أما في عصرِ صدرِ الإسلامِ فكانت الدعوةُ تشغل حيزًا كبيرًا من حياةِ الناسِ آنذاك، لكثرةِ فتوحاتِهم الإسلاميةِ ومحبتِهم في نيلِ الشهادةِ في سبيلِ اللهِ وموتِهم أعزاءَ، فربطت «خزانة بنت خالد» في رثائها للمسلمين جمالَ وجوهِهم وبياضَها وصفاءَها وبراءَتَها بعدَ نَيْلِهم الشهادةَ في سبيلِ الله بالعزةِ والشجاعةِ وذلك حين قالت (البيت٤):

هم فتية غر الوجوه أعزة ليوث لدى الهيجاء شعث الجماجم

الشجاعة:

كانت الشجاعةُ من المناقبِ التي عددها الشاعراتُ في تأبينِ المرثيِّ في العصرِ الجاهلي لتبيِّنَ قوتَه وشجاعتَه وهذا ما فرضتْه عليهم الحروبُ، حيثُ فرضت أن ينشأَ فوارسُ لكلِّ قبيلةٍ لإعدادهم للحروبِ ومناصرةِ القبائلِ، فنجد «ابنةَ فَرْوَةَ» في رثائِها لأبيها تصفُه بالسيدِ الشجاعِ الذي يَكْلَفُ به الرمحُ فالرمحُ لا يَكْلَفُ إلا بالرجلِ الشجاعِ الكريمِ، وذلك في قولها (البيت٢):

وَقَالُوا: سيِّدًا مِنْكُمْ قَتَلْنَا كَذَاكَ الرُّمحُ يَكْلَفُ بِالْكَرِيمِ

وظلت هذه الصفةُ سائدةً في عصرِ صدرِ الإسلامِ نظرًا لأنّ عصرَ صدرِ الإسلامِ يحتاجُ إلى فوارسَ أبطالٍ لنشرِ دينِ اللهِ في بقاعِ الأرضِ، فنجد «عاتكة بنت زيد» في رثائِها لـــــــ «عبدِ اللهِ بنِ أبي بكرٍ» تصفُه بقوتِه وشجاعتِه يومَ الهياجِ عندما كانت تشرعُ الأسنةُ، يتقدم الصفوفَ ولا يعودُ إلا بعد أن يُخضِّبَ رمحَه بدماءِ الأعداء وذلك حين قالت (البيتين١- ٢):

فَللّه عينا مَن رَأى مثلَهُ فتىً أَكرَّ وَأَحمى في الهياجِ وَأَصبرا
إِذا شُرعت فيهِ الأسنَّةُ خاضَها إِلى الموتِ حتّى يترك الرمحَ أَحمرا

الكرم:

كان العربيُّ الجاهليُّ يُعرَفُ بكثرةِ كرمِه وجودِه على الناسِ، وفي هذا يقول الدكتورُ «محمد سامي العاني»: وإنما عرضوا أيضًا إلى كثيرٍ مما تعارفَ عليه العربُ من مفاخرَ جاهليةٍ لم ينكرْها الإسلامُ، من ذلك التأبينُ بذكرِ الكرمِ فقد تداولَ أكثرُ الشعراءِ هذه المنقبةَ التي عُرِفَ بها العربيُّ في جاهليتِه١.

فكانت تلك الصفةُ صفةَ فخرٍ للعربِ خاصةً إذا كَثُرَ كرمُه في وقتِ الشدائدِ وأصبح ملجأً للفقراءِ ومشبعًا لَهم في السنينَ المجدبةِ، فـــ «صخرُ الندى» كان يكرمُ القومَ ويشبعُهم في تلك السنينَ الجدباءِ فنرى ذلك واضحًا في قول «الخَنْسَاء» (البيت١٥٢):

وَالـــمُشبِعُ القَومِ إن هَبَّت مُصَرصَرَةٌ نَكباءُ مُغبَرَّةٌ هَبَّت بِصُرّاد

وظلت تلك الصفةُ في عصرِ صدرِ الإسلامِ تتميزُ بقيمتِها الجاهليةِ لِتَناسُبِها مع مبادئِ الدينِ الإسلاميِّ، وتكافلِ أفرادِه معًا؛ حيث جاءت صفةُ الكرمِ مرتبطةً بالإنفاقِ والثوابِ والجزاءِ في الدينِ الإسلاميِّ، فكانت سببًا في تزكيةِ النفسِ، قال اللهُ تعالى: «وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَلِأَنْفُسِكُمْ وَمَا تُنْفِقُونَ إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ اللَّهِ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تُظْلَمُونَ»٢، ونجد «هندَ بنتَ أثاثةَ» تصفُ «عبيدةَ بنَ الحارثِ» بشدةِ كرمِه وإنفاقِه، فلا نجدُ بابًا للكرمِ إلا دخلَه وأنفقَ فيه مالَه؛ فنرى حُسْنَ كفالتِه للأيتامِ والأرامل، وكثرةَ إشعالِ النيرانِ حتى إذا مات ضوؤها أشعلَها من جديدٍ لتظلّ دائمًا مضيئةً لطارقِ ليلٍ، ويواصلُ كرمَه إلى تلك السنينَ القاحطةِ المجدبةِ التي يقِلُّ فيها الطعامُ وذلك في قولِها(الأبيات١- ٢- ٣- ٤- ٥- ٦):

لَقَدْ ضُمِّنَ الصَّفْرَاءُ مَجْدًا وَسُؤْدُدًا وَحِلْمًا أَصِيلًا وَافِرَ اللُّبِّ وَالْعَقْلِ
عُبَيْدَةَ فَابْكِيهِ لِأَضْيَافِ غُرْبَةٍ وَأَرْمَلَةٌ تَهْوِي لِأَشْعَثَ كَالْجِذْلِ
وَبَكِّيهِ لِلْأَقْوَامِ فِي كُلِّ شَتْوَةٍ إِذَا احْمَرَّ آفَاقُ السَّمَاءِ مِنْ الْمَحْلِ
وَبَكِّيهِ للأيتام والرّيحُ زَفْزَةٌ وَتَشْبِيبُ قِدْرٍ طَالَمَا أَزْبَدَتْ تَغْلِي
فَإِنْ تُصْبِحُ النِّيرَانَ قَدْ مَاتَ ضَوْءُهَا فَقَدْ كَانَ يُذْكِيهِنَّ بِالْحَطَبِ الْجَزْلِ
لِطَارِقِ لَيْلٍ أَوْ لِمُلْتَمِسِ الْقِرَى وَمُسْتَنْبَحٍ أَضْحَى لَدَيْهِ عَلَى رَسْلِ

السيادةُ والمكانةُ العاليةُ والنسبُ الخالصُ:

في العصرِ الجاهليِّ، كان الافتخارُ بالنسبِ أمرًا شائعًا بين العرب، فكانوا يعتبرون النسبَ رمزًا للشرفِ والكرامةِ، ويفتخرونَ به أمامَ الآخرين، فقد كان الافتخارُ بالنسبِ في الجاهليةِ جزءًا من ثقافةِ العربِ في ذلك العصر، حيث كانت القبائلُ العربيةُ تتنافسُ فيما بينها في الافتخارِ بالنسبِ، وكانوا يعتبرون أنفسَهم أشرافًا وأفضلَ من غيرِهم بسببِ نسبِهم، وكان هذا الافتخارُ يؤدي إلى تحسينِ مكانةِ الفردِ في المجتمعِ، وزيادةِ ثقتِه بنفسه، فظلت المرأةُ تأبنُ المرثيَّ بتلك الصفةِ لتبينَ مكانتَه ونسبَه في القوم، فتلك «فَاطِمَةُ بِنْتُ الأَحْجَمِ» تصفُ إخوتَها الذينَ رعَوْا المجدَ والشرفَ ونالُوه، وذلك في قولها (البيت١١):

رَعَوْا مِنَ الْمَجْدِ أَكْنَافًا إِلَى أَمَدٍ حَتَّى إِذَا كَمُلَتْ أَظْمَاؤُهُمْ وَرَدُوا

و«جنوبُ الهذليةُ» حينما أرادت أن تفخرَ بنسبِ أخيها عمرٍو فهو خيرُ قبيلةِ بني هذيلٍ وأحسنُهم نسبًا، وذلك في قولها (البيتين٥- ٦):

أَبْلِغْ هُذَيْلًا وَأَبْلِغْ مَنْ يُبَلِّغُها عَنِّي حَدِيثًا وَبَعْضُ الْقَوْلِ تَكْذِيبُ

بَأَنَّ ذَا الْكَلْبِ عَمْرًا خَيْرَهُمْ نَسَبًا بِبَطْنِ شِرْيَانَ يَعْوِي حَوْلَهُ الذِّيبُ

ومن هنا كان الافتخارُ بالنسبِ عندَ الجاهليين سمةً مميزةً للثقافةِ العربيةِ، فكان العربُ يعتبرون النسبَ رمزًا للشرفِ والكرامةِ، ويفتخرون به أمامَ الآخرينَ، ولكنْ معَ ظهورِ الإسلامِ، تغيرَت هذه النظرةُ بشكلٍ كبير، فجاءَ النبيُّ «محمدٌ» بالرسالةِ الإسلاميةِ التي تؤكد على المساواةِ بين جميعِ الناسِ، وأنّ التقوى هي المعيارُ الحقيقيُّ للتفوق إلى درجاتِ الجنانِ، قال الله تعالى في كتابه العزيز: «إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ»٣ وبذلك أصبحت التقوى بديلًا كريمًا عن الافتخارِ بالنسب، وأصبحَ الناسُ يفتخرون بتقواهم وعبادتِهم لله تعالى، ولم يَعُدِ النّسبُ معيارًا للتفوق، بل أصبحت التقوى هي المعيارُ الحقيقيُّ، وهذا التغييرُ كان له دورٌ كبيرٌ في بناءِ المجتمعِ الإسلاميِّ على أساسِ المساواةِ والعدلِ.

فتلك «عمرةُ بنتُ مرداسٍ» التي لَمَعَتِ الكلماتُ الإسلاميةُ في شعرِها حينَ أَبَنَتْ أخاها فكانَ تقيًا نقيًا فصيحًا خطيبًا، وصِفةُ الخطابةِ التي وصفتْه بها كانت شائعةً في الدينِ الإسلاميِّ الجديدِ لكثرةِ الخطبِ به والحثِّ على الدخولِ في دينِ اللهِ أفواجًا، وذلك في قولها (البيت٨):

تَقيًّا نقيًّا رحيبَ المقام كميًّا صليبًا لبيبًا خطيبا

وكانت «عاتكةُ بنتُ عبدِ المطلبِ» شاعرةً مخضرمةً تغلغلَت الصفاتُ الإسلامية في قلبِها، وغلبَ على شعرِها الجانبُ الإسلاميُّ، فإذا نظرْنا إلى قصيدتِها الأولى التي رثَتْ فيها أباها «عبدَ المطلبِ»، وجدْناها حافلَةً بألفاظٍ جاهليةٍ محضةٍ، أمّا في رثائِها لرسول الله فقلبُها يصفُ لا لسانُها، فهو الرسولُ الأعظمُ المباركُ الموفقُ التقيُّ الذي أرسلَه اللهُ رحمةً للعالمين ليرشدَهم ويعلمَهم تعاليمَ الدينِ الإسلاميِّ الجديدِ، فأضاءت تلك الفكرةُ قلبَ «عاتكةَ بنتِ عبدِ المطلبِ»، وذلك في قولها (البيت١٩):

فَابْكِي الْمُبَارَكَ وَالْمُوَفَّقَ ذَا التُّقَى، حَامِي الْحَقِيقَةِ ذَا الرَّشَادِ الْمُرْشِدِ

وهذا البيتُ يؤكدُ دخولَ المعاني الإسلاميةِ في شعرِ«عاتكةَ» التي اختلفَتْ عن الجاهليةِ حينما رثت أباها، حيث استشعرَت تلك المعاني، وذلك في قولها (البيت٢٨):

عَلَى الْمُرْتَضى لِلْبرِّ وَالْعَدْلِ وَالتُّقَى وَلِلدِّيْنِ وَالإِسْلامِ بَعْدَ الْمَظَالِمِ

ورغم هذا فنحن إذا نقبْنا عن صفةِ السيادةِ في العصرِ الإسلاميِّ نجدُ لها أثـــرًا، فتلك «صفيةُ بنتُ عبدِ المطلبِ» حين وصفت الرسول بأنه أعظمُ الناسِ وسيِّدُهم، ولكنِّ النبيِّ مُستثنَى مِن أيِّ شيءٍ، فكانُ النبيُّ يفتخرُ بنسبِه ومكانتِه فقـــال: "أنـــا سيدُ ولدِآدمَ" و لم يقصدْ به الافتخارَ، ولا التطاولَ على من تقدّمَه، بل قاله بيانًا لما

أُمِرَ ببيانه وتبليغِه، ولهذا قال: "ولا فخرَ" لينفِيَ ما قد يتطرقُ إلى بعضِ الأفهامِ السخيفةِ٤، أمّا «صفيةُ» فوصفتْه بالسيادةِ لسيادتِه العالمِ أجمعين ولعظمتِه ومكانتِه العاليةِ، وذلك في قولها (البيت٣١):

أَعْظَمِ النَّاسِ فِي الْبَرِيَّةِ حَقًّا، سَيِّدِ النَّاسِ حُبُّهُ فِي الْقُلُوبِ

الفصاحة والبيان:

كان العربُ في الجاهليةِ يتميزون بالفصاحةِ والبيانِ في كلامِهم ومجالسِهم، فنرى «الخَنْسَاء» تبرزُ تلك الصفةَ في «صخرٍ»، فهو السيدُ الفصيحُ الذي يزيلُ الشبهاتِ من الكلامِ إذا اخْتلطَ أو الْتبَسَ، وذلك في قولها (البيت٤٦٥):

فَلَأَبكِيَنَّكَ سَيِّدًا فَصلَ الخِطابِ إذا اِلتَبَسْ

وظلت تلك الصفةُ في صدرِ الإسلامِ، فنرى بلاغةَ «عمرةَ بنتِ مرداسٍ» في وصفِها لأخيها، فكان لبيبًا خطيبًا حليمًا أريبًا، والذي زادته «عمرةُ بنتُ مرداسٍ» على أُمِّها «الخنساء»، أنّها قالت الصفاتِ التي يجبُ أن يتحلى بها الخطيبُ، وهي التقوى والنقاءُ والحِلْمُ، وذلك حين قالت (البيت٨- ٩):

تَقيًّا نقيًّا رحيبَ المقام كميًّا صليبًا لبيبًا خطيبا

حَليمًا أريبًا إذا ما بدا سَديد المقالةِ صُلبًا دريبا

الخيرية:

كانت صفةُ الخيريةِ من الصفاتِ التي تميزَ بها العربيُّ، فهى من أهمِّ الفضائلِ التي يجبُ أن تمتلكَها النفسُ البشريةُ، ويتحلي الفردُ بها، فنجدُ «الخَنْسَاءَ» قد وصفَتْ «صخرًا» بالخيريةِ عن طريقِ كثرةِ جودِه وعطاياه الضخمةِ، ليس هذا فحسبٌ، بل كانَ يأمرُ ببذلِ الخيراتِ دائمًا، وذك في قولها (البيت٢٦٠):

طَلقُ اليَدَينِ لِفِعلِ الخَيرِ ذو فَجرٍ ضَخمُ الدَسيعَةِ بِالخَيراتِ أَمّارُ

و«خَالِدَةُ بِنْتُ هَاشِمٍ» في قولها (البيت٣):

هَاشِمِ الْخَيْرِ ذِي الْجَلَالَةِ وَالْحَمْدِ وذِي الْبَاعِ وَالنَّدَى وَالْصَّمِيمِ

وازدهرت تلك الصفةُ في صدرِ الإسلامِ، وذلك نظرًا للدينِ الجديدِ الذي جاء ليزكيَ النفسَ البشريةَ ويسمو بها، فنجد «نائلةَ بنتَ الفرافصةِ» تصفُ «عثمانَ بنَ عفانَ» بأنه خيرُ الناسِ بعدَ ثلاثةٍ وهم: «الرسولُ» ، و«أبو بكرٍ الصديقُ»، و «عمرُ بنُ الخطابِ» وذلك في قولها (البيت١):

ألا إنَّ خيرَ الناس بعد ثلاثةٍ قتيلُ التُجيبي الذي جاء من مصرِ

و«أم البراءِ» التي وصفت «عليِّ بنَ أبي طالبٍ» بأنه خيرُ الخلائقِ الذي يكمنُ فيه العدلُ وقيادةُ المسلمين، وذلك في قولها (البيت٢):

الشّمسُ كاسِفةٌ لفَقْدِ إمامنَا خَيْرِ الخلائِق والإمامِ العادِل

العفة والطهارة:

ونجدُ «الخَنْسَاءَ» قد وصفت «صخرًا» بتلك الصفةِ عندما كانت تُكلِّمُه وهو في القبرِ، وتتعجَّبُ من هذا القبرِ الذي يضمُّ جسدَه الطاهرَ العفيفَ، في قولها (البيت٣٧٦):

يا صَخرُ ماذا يُواري القَبرُ مِن كَرَمٍ وَمِن خَلائِقَ عَفّاتٍ مَطاهيرِ

وذُكِرَتْ تلك الصفةُ في العصرِ الإسلاميِّ أكثرَ من الجاهليِّ نظرًا لمبادئِ الدينِ الإسلاميِّ الجديدِ الذي يحثُّ على الطهارةِ والعفافِ، فتلك «صفيةُ بنتُ عبدِ المطلبِ» تصفُ الرسولَ المرسلَ بالطهارةِ والاصطفاءِ، متميزةً بروحٍ شعريةٍ إسلاميةٍ، واستخدمَت تلك الكلماتِ الإسلاميةَ (الطاهرَ، المرسلَ، الرسولَ، المُجتبَى) على عكسِ ما جاءت به «الخنساءُ» في البيتِ السابقِ، وذلك في قولِ «صفيةَ» (البيت٤٨):

عَلَى الطَّاهِرِ الْمُرْسَلِ الْمُجْتَبَى، رَسُولٍ تَخَيَّرَهُ ذُو الْكَرَمْ

ووصفُها للرسولِ بالطهارةِ في بيتٍ آخرَ لها (البيت٤٩):

عَيْنِ جُودِي بِدَمْعَةٍ تَسْكَابِ لِلنَّبِيِّ الْمُطَهَّرِ الْأَوَّابِ

أمّا هذا البيتُ فقد عَدَّدَت فيه «صفيةُ بنتُ عبدِ المطلبِ» مناقبَ الرسولِ بجانبِ العفةِ والطهارةِ، وهي صِدْقُ النبيِّ ووفاؤه بالوعدِ، حيث اشتمل هذا البيتُ على بعضٍ من المبادئِ الإسلاميةِ التي يجبُ أن يتحلّى بها المسلمُ فكان الرسولُ قرآنًا يمشي على الأرضِ، وذلك في قولها (البيت٦٤):

أَبْلَجٌ صَادِقُ السَّجِيَّةِ عَفٌّ، صَادِقُ الْوَعْدِ مُنْتَهَى الرُّوادِ!

العدل:

كانت صفةُ العدلِ في الجاهليةِ تتحقّقُ من خلالِ إعطاءِ المظلومِ حقّه أو ردِّ مظلمتِه ولا يَفعلُ ذلك غيرُ القويِّ، وفي ذلك يقول الدكتور «جواد علي»: لقد صَيَّرَت المعيشةُ القبليةُ التي عاشَ فيها أكثرُ العربِ في الجاهليةِ مفهومَ "العدلِ" أو "الحقِّ" عندَهم بصورةٍ تختلفُ عن مفهومِنا -نحنُ- للحقِّ والعدلِ، فالعدالةُ عندهم لم تكنْ تتحقق وتؤخذُ إلا بالقوةِ، لذلك أثّرَت "القوةُ" تأثيرًا كبيرًا في تحديدِ مفهومِ "العدلِ" و"الحقِّ" فَلِكَيْ ينالَ الإنسانُ حقّه كان عليه أنْ يجاهدَ بنفسه وبذَوِي قرابتِه وعشيرتِه للحصولِ على ما يدعيه من حقٍّ ويثبتُه٥. فـــ «ابنةُ وَثِيمةَ» تصفُ أباها بشدةِ عدلِه عن طريقِ ردِّ مظلمةِ المظلومِ وإعطائِه حقّه، في قولها (البيت٧):

وَالدَّافِعَ الْخَصْمَ الْأَلَدَّ إِذَا تُفُوضِحَ فِي الْخُصُومَهْ

أمّا العدلُ في الإسلام، فقد أصبحَ مبدأً من مبادئِه يتضمنُ المساواةَ في الحقوق والواجباتِ، وإعطاءَ كلِّ ذي حقٍّ حقَّه، فنجدُ «أمِّ البراء» تصفُ «عليَّ بنَ أبي طالب» بعدلِه، فهو قائدُ المسلمين وإمامُهم العادلُ، حيث أسقطَت «أمُّ البراء» في شعرِها المعانيَ الإسلاميةَ التي تغلغلَت بداخلها كـــ (خيرِ الخلائقِ، والإمامِ العادلِ) وذلك حين قالت (البيت٢):

الشَّمسُ كاسِفةٌ لفَقْدِ إمامنَا خَيْرِ الخلائِق والإمامِ العادِل

أمّا «سودةُ بنتُ عمارةَ» فتملكَها الشعورُ الدينيُّ الإسلاميُّ وشدةُ جزعِها على «عليِّ بنِ أبي طالب»، مما جعلَها تدعو له وتحزنُ لغيابِ العدالةِ من بعدِه فكانت في ظلِّ حكمِه تتنعمُ بها، وذلك في قولها (البيت١):

صَلَّى الْإِلَهُ عَلَى جِسْمٍ تَضَمَّنَهُ قَبْرٌ فَأَصْبَحَ فِيهِ الْعَدْلُ مَدْفُونَا

الصبر:

كان الصبرُ في الجاهليةِ مرتبطًا في أغلبِ الأحيانِ بالحربِ ومثابرةِ الفارسِ المرثيِّ فيها، وتمسُّكِه بالتجلدِ والصبرِ، فنجدُ «أمِّ صَريحٍ الكِنديَّةَ» التي وصفت صبرَ قومِها في ساحةِ المعركةِ ورفضَهم الفِرارَ، لا لأنهم جبناءُ، بل لأنهم عُرِفُوا بشجاعتِهم وفروسيتِهم، فلو فرُّوا فذلك من حسنِ التدبيرِ والرأيِ الصائبِ، ولكنّهم قرروا الصبرَ في الحربِ، فإذا أصابتْهم المنيَّةُ ماتوا أعزاءَ كرماءَ، وذلك في قولها (البيت٣):

ولو أنّهم فرُّوا لكانوا أعزَّةً ولكن رأوا صبرًا على الموت أكرمًا

وهذه الصفةُ ظلت في الإسلامِ ولكن في ثوبها الجديدِ، فجاء الصبرُ في الإسلامِ في كافةِ أمورِ الحياةِ، وقد قسمه العلماءُ إلى: الصبرِ على الطاعاتِ، والصبرِ على المعاصي، والصبرِ على الابتلاءاتِ، فالموتُ هنا ابتلاءٌ، وقد أوجبَ اللهُ تعالى على عبادِه الصبرَ عند المصائبِ، فقال سبحانه وتعالى: «وَاصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ»٦، فأمر رسولُ اللهِ النساءَ بالصبرِ عند الجزعِ، ونهاهم عن فعلِ ما كانوا عليه في الجاهليةِ من حلقِ الرؤوسِ، وشقِّ الجيوبِ، وضربِ النعلينِ على الصدورِ، فالصبرُ خيرٌ من هذه الأفعالِ، وهذا الذي يظهرُ لنا في قول «الخَنْسَاء» (البيت٥٦٠):

وَلَكِنّي وَجَدتُ الصَبرَ خَيرًا مِنَ النَعلَينِ وَالرَأسِ الحَليقِ

وهذا البيت قالتْه «الخنساءُ» بعدَ دخولِها الإسلامَ، عندما دخل عليها «عمرُ بنُ الخطابِ» البيتَ الحرامَ.

و«عاتكةُ بنتُ زيدٍ» في رثائها لـــــ «عبدِ اللهِ بن أبي بكرٍ»، حين وصفَت قوتَه وشجاعتَه يوم الهياجِ، وصبرَه في المعركةِ، عندما كانت تشرعُ الأسنةُ كان يتقدم الصفوفَ ولا يعودُ إلا بعدَ أن يُخَضِّبَ رمحَه بدماءِ الأعداءِ، ولا يلتبس علينا الأمرُ فنشبهُ هذين البيتين بأبياتِ الصبر في المعارك الجاهليةِ لأن حروبَ الجاهليةِ كانت بسببِ العصبيةِ القبليةِ التي نهى عنها الإسلامُ، أما الصبرُ هنا في المعاركِ والغزوات التي أمر اللهُ بها، وأمر بنشرِ دينه في بقاعِ الأرض، وذلك حين قالت (البيتين١- ٢):

فَلِلّه عينا مَن رَأى مثلَهُ فتىً أكرَّ وَأَحمى في الهياجِ وَأَصبرا
إِذا شُرعت فيهِ الأسنَّةُ خاضَها إِلى الموتِ حتّى يترك الرمحَ أَحمرا

الهداية:

وقد نزلت الهِدايةُ مع الدينِ الإسلامي لِهدايةِ النفسِ البشريةِ وإرشادِها، حيث جاءت تلك الصفةُ بكثرةٍ في هذا العصرِ؛ نظرًا لتزولِ الدينِ الجديدِ وما يهدفُ إليه من هدايةِ البشرِ، حيثُ أرسلَ اللهُ سيدنا محمد بالهدى ودينِ الحقّ، وفي ذلك يقول الله تعالى: «هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ»٧ فقد كان رسول الله هاديًا مرشدًا وحين ماتَ رثته عدةُ شاعراتٍ بتلك المنقبةِ، فنرى «فاطمةُ بنتُ الرسولِ» تصفُ ضياعَ القومِ واحتياجَهم إلى الرسولِ لإرشادِهم حتى تستقيمَ حياتُهم، وذلك حين قالت (البيتين٦- ٧):

قَدْ كَانَ بعَدَكَ أنباءٌ وهَنبَثَةٌ لَوْ كُنْتَ شاهِدَها لم تَكثُرِ الخُطَبُ

إنّا فَقَدْنَاكَ فَقْدَ الأرْضِ وَابِلَهَا فاحتَلْ لقَوْمِكَ فاشهَدْهُمْ ولَا تَغِبِ

و«عاتكةُ بنتُ عبد المطلب» في وصفها للنبيِّ فكانَ هاديًا ومبشرًا وسراجًا منيرًا، يُعرُف بالحقِّ والنورِ، وذلك في قولها (البيت٢٦):

عَلَى الْمُصْطَفَى بِالْحَقِّ وَالنُّورِ وَالْهُدَى وَبِالرُّشْدِ بَعْدَ الْمُنْدَبَاتِ الْعَظَائِمِ

الصدق:

كان العربُ قبلَ الإسلامِ يتميزون بصفةِ الصدقِ وينفرون من الكذبِ؛ لأنه كانَ صفةً ذميمةً لا يحبُّ الرجلُ في الجاهيلةِ الاتصافَ بها لبشاعتِها، وخاصةً إذا كان له سلطةٌ على قومِه، فكلمتُه صدقٌ، كـــــــ «صخرٍ» الذي وصفته «الخَنْسَاءُ» بالصدقِ، فنجد هذا البيتَ يحملُ معانيَ الافتخارِ، حيث أرادت «الخنساءُ هنا أن تفتخرَ بأخيها «صخرٍ»، فألبسَتْه ثوبَ المجدِ والجودِ وصدقِ الحديثِ وصدقِ البأسِ، وذلك في قولها (البيت٨):

المجدُ حُلَّتُهُ وَالجودُ عِلَّتُهُ وَالصِدقُ حَوزَتُهُ إن قِرنُهُ هابا

وأما بيتُ «الخَنْسَاء» هذا فُيُظهرُ صدقَ مقالِ «صخرٍ»، وذلك في قولها (البيت٣٦):

فَكَكتَهُ وَمَقالٍ قُلتَهُ حَسَنٍ بَعدَ المَقالَةِ لَم يُؤبَن بِتَكذيبِ

ولّما جاءَ الإسلامُ، دعمَ تلك الصفةَ وقواها، فكان الرسولُ يلقبُ بـــــ «الصادقِ الأمينِ» لصدقِ كلامِه، وكذلك لُقِّبَ «أبو بكرٍ بالصدِّيقِ» لكثرةِ تصديقِه النبيِّ، فكان هذا العصرُ عصرَ صدقٍ، وأيضًا نجدُ عمّاتِ الرسولِ تَصِفْنَه بهذه الصفةِ –الصدق– التي لازمتْه طوالَ حياتِه حتى لُقِّبَ بها، فتلك «أروى بنتُ عبدِ المطلبِ» التي أسقطت في بيتِها المعانيَ الإسلاميةَ الساميةَ، حيث قالت عن الرسول إنّه بلغَ الرسالةَ الإسلاميةَ كما هي بأمانةٍ وصدقٍ وبدونِ تحريفٍ، وفي أثناءِ تأديتِه تلك الرسالةَ، صبرَ وتحملَ المشاقَّ والتعبَ الذي واجهَهُ أثناءَ تبليغِه لها، وذلك في قولها (البيت٢٣):

صَبَرْتَ وَبَلَّغْتَ الرِّسَالَةَ صَادِقًا وَقُمْتَ صَلِيبَ الدِّينِ أَبْلَجَ صَافِيَا

و«صفيةُ بنتُ عبدِ المطلبِ» التي أثّرَ الإسلامُ في قلبها مما جعلَها تلْفِظُ بمعانيه، وتصف بها رسولَ اللهِ خاتمَ الأنبياءِ والرسلِ، الذي يَصْدُقُ قولَه وفعالَه، فقد كان رءُوفًا رحيمًا بالعبادِ، تجمعَت فيه جُلُّ الصفاتِ، وذلك حين قالت (البيت٥٢):

فَاتِحٍ خَاتَمٍ رَحِيمٍ رَءُوفٍ، صَادِقِ الْقِيلِ طَيِّبِ الْأَثْوَابِ

الرحمة:

وهي من الصفاتِ الإنسانيةِ التي نزلَت معَ الدينِ الإسلاميِّ، فحثّ على التراحمِ والتَّوَدُّدِ بينَ الناسِ، ولكنْ كانَ لها ظلٌّ في الجاهليةِ، وهذه «الخَنْسَاءُ» تصفُ لنا رأفةَ «صخرٍ» ورحمتَه، وذلك في قولها (البيت٥٨):

يَعودُ عَلى مَولاهُ مِنهُ بِرَأفَةٍ إِذا ما المَوالي مِن أَخيها تَخَلَّتِ

وفي العصرِ الإسلامي، لمعَت تلك الصفةُ بنزولِ الدينِ الجديدِ؛ فقد بعثَ اللهُ «محمدًا» رحمةً للعالمينَ، بعدَ أنْ كان المجتمعُ الجاهليُّ في حالةٍ من الفوضى، وانعدامِ السلامِ، فكان مجتمعًا يحتاجُ إلى من يَرْأَفُ به، فجاء الرسول رحمةً مُهْداةً، ونعمةً مُسْداةً، فنرى «أروى بنتَ عبدِ المطلبِ» تصف برِّ الرسولِ بأهلِه وبالمسلمين، فقد كان رءوفًا رحيمًا تترجاه نساءُ الجاهليةِ ورجالُها لتغييرِ ما كانوا عليه من الضلالِ، وذلك في قولها (البيتين١٦- ١٧):

أَلا يَا رَسُولَ اللَّهِ كُنْتَ رَجَاءَنَا وَكُنْتَ بِنَا بَرًّا وَلَمْ تَكُ جَافِيَا

وَكُنْتَ بِنَا رَوْفًا رَحِيمًا نَبِيَّنَا لِيَبْكِ عَلَيْكَ الْيَوْمَ مَنْ كَانَ بَاكِيًا

و«صفيةُ بنت عبد المطلب» التي تحزنُ لفراقِ من كان يشفقُ عليها وعلى المسلمين، وينصحهم بقلبٍ رحيمٍ رءوفٍ، وذلك في قولها (البيتين٥٢-٥٣):

فَاتِحٍ خَاتَمٍ رَحِيمٍ رَءُوفٍ، صَادِقِ الْقِيلِ طَيِّبِ الْأَثْوَابِ

مُشْفِقٍ نَاصِحٍ شَفِيقٍ عَلَيْنَا، رَحْمَةٍ مِنْ إِلَهِنَا الْوَهَّابِ

و«عاتكةُ بنتُ زيدٍ» التي مثَّلت اعتدالَ ويُسْرَ الدينِ الإسلاميِّ في وصفِها لـــــ«عمرَ بنِ الخطاب» الذي كان رحيمًا بالمسلمين شديدًا على الأعداء، ونجدُها متأثرةً بقولِ اللهِ تعالى: «مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ»٨، وذلك في قولها (البيت١٤):

رَءوفٍ عَلى الأدنى غليظٍ عَلى العِدَا أَخِي ثقةٍ في النائبات نجيبِ

المبحث الثاني
ظاهرةُ الدعاءِ للموتى بالسُقْيَا والرحمة:

في العصرِ الجاهليِّ، كانت هناك ظاهرةٌ شائعةٌ بين العرب، وهي الدعاءُ للموتى بسُقْيَا الماء، كانت هذه الظاهرةُ تتمثلُ في سُقْيَا الماءِ على القبور، وقد يتعدّى هذا الدعاءُ القبرَ ليشملَ المدينةَ التي بها القبرُ بأكملِها، فنجدُ «الخنساءَ تدعو بأن تُسْقَى البلدُ التي بها قبرُ أخيها لتُرْوَى روحُه، ظنًا منها بأنّ أخاها يودُّ لو أنّ هذه الغمائمَ تمطرُ وتبردُ ضريحَه، وذلك في قولها (البيتين٣٩٤- ٣٩٥):

أَسقى بِلادًا ضُمِّنَت قَبرَهُ صَوبُ مَرابيعِ الغُيوثِ السَوار
وَما سُؤالي ذاكَ إِلّا لِكَي يُسقاهُ هامٍ بِالرَوي في القِفار

وفي بيتٍ آخرَ لها تدعو بأنْ يهطلَ المطرُ الغزيرُ الشديدُ على الأرضِ التي بها قبرُ «صخرٍ» حتى يُروَى ضريحُه، وذلك حين قالت (البيت٨٢٠):

سَقى اللَهُ أَرضًا أَصبَحَت قَد حَوَتهُما مِنَ الـــمُستَهِلّاتِ السَحابَ الغَوادِيا

وكذلك «أميمةُ بنتُ عبدِ المطلبِ»، حين دعَت بأنْ تُمطِرَ السماءُ ماءً على قبرِ أبيها «عبدِ المطلبِ» حتى يُروَى، وذلك في قولها (البيت٦):

سَقَاكَ وَلِيُّ النَّاسِ فِي القَبر مُمْطِرًا فَسَوْفَ أُبَكِّيهِ وَإِنْ كَانَ فِي اللَّحْدِ

أما «تماضرُ» فقد استخدمَت هذا الدعاءَ بالنفي، فقامت بالدعاءِ على «حذيفةَ» الذي قتلَ ابنَها «مالكًا»، فدعت عليه بألّا يُمطَرَ الماءُ على قبرِه حتى تظلّ روحُه عطشةً، فتريدُه أنْ يُعَذّبَ في قبرِه بسبب قتلِه «مالكَ بنَ زهيرٍ»، وذلك في قولها (البيت٨):

حُذَيْفَةُ لَا سُقِيتَ مِنَ الْغَوَادِي وَلَا رَوَّتْكَ هَاطِلَةٌ نَدَاهَا

وفي ذلك يقول الدكتور«حسين جمعة»: وليسَ غريبًا بعد ذلك أن يكلمَ العربيُّ الموتى كأنهم أحياءٌ، وأن يدعوَ لقبورهم بالسُّقْيَا التي تجعلُ القبرَ نديةً طريةً أبدًا وبهذا تبقى الحياةُ أمامَهم عن طريقِ العشبِ الأخضرِ على الرغمِ من أنّ صاحبَ القبرِ تحتَ التراب٩.

ومع دخولِ الدينِ الإسلاميِّ الجديدِ، تبدّلت تلك الظاهرةُ وهذا الدعاءُ إلى صلاةٍ على الميِّتِ ودعاءٍ بالمغفرةِ والرحمةِ، فنجد مقطوعةَ «أمِّ سنان الخثعميةَ» تدعو لـــــ «عليِّ بنِ أبي طالبٍ» بالرحمةِ والمغفرةِ وتصلى عليه، فقالت (الأبيات١- ٢- ٣- ٤):

إِمَّا هَلَكْتَ أَبَا الْحُسَيْنِ فَلَمْ تَزَلْ بالحقِّ تُعْرَفُ هادياً مهديّا
فَاذْهَبْ عَلَيْك صَلَاة رَبك مَا دعت فَوْقَ الْغُصُونِ حمامةٌ قُمْرِيَّا
قَدْ كُنْتَ بَعْدَ مُحَمَّدٍ خَلَفًا لَنَا أَوْصَى إِلَيْكَ بِنَا فَكُنْتَ وَفِيًّا
فَالْيَوْمَ لَا خلفٌ نأمل بَعْدَهُ هَيْهَاتَ نَمْدَحُ بَعْدَهُ إِنْسِيًّا

وبيتا «سودةَ بنتِ عمارةَ» التي دعت فيهم لـــــ «عليِّ بنِ أبي طالبٍ» بأن يغفرَ اللهُ له ويرحمَه، فقالت (البيتين١- ٢):

صَلَّى الْإِلَهُ عَلَى جِسْمٍ تَضَمَّنَهُ قَبْرٌ فَأَصْبَحَ فِيهِ الْعَدْلُ مَدْفُونَا
قَدْ حَالَفَ الْحَقَّ لَا يَبْغِي بِهِ بَدَلًا فَصَارَ بِالْحَقِّ وَالْإِيمَانِ مَقْرُونَا

ودعاءُ «عاتكةَ بنتِ زيدٍ» لزوجها «عمرَ بنِ الخطابِ» بأن يتغمدَه اللهُ بواسعِ رحمتِه ومغفرتِه، وذلك في قولها (الأبيات١٦- ١٧- ١٨)

مَنْ لِنَفْسٍ عَادَهَا أَحْزَانُهَا وَلِعَيْنٍ شَفَّهَا طُولُ السُّهُدْ
جَسَدٌ لُفِّفَ فِي أَكْفَانِهِ رَحْمَةُ اللَّهِ عَلَى ذَاكَ الجَسَدْ
فِيهِ تَفْجِيعٌ لِمَوْلًى غَارِمٍ لَمْ يَدَعْهُ اللهُ يَمْشِي بِسَبَدْ

وفي ذلك يقولُ الدكتورُ «حسين جمعة»: وأَبَّنَ المسلمون الرسولَ الأعظمَ وخلفاءَه وصحابتَه، ووقفوا على قبورِهم الشريفةِ، يدعون اللهَ -سبحانه وتعالى- بأنْ يرحَمَهم ويغفرَ لهم، وبأن يسكنَهم فسيحَ جناتِه، ويصلون عليهم ثم يعودون تاركينهم مع رضوانِ اللهِ ورحمتِه التي تسعُ كلَّ شيءٍ، وكان المسلمون يؤكدون على صفاتِ المتوَفَّى المسلمِ بما فعلَه من أجلِ الإسلامِ ونشرِ نورِه١٠.

وتشاركُ المرأةُ المسلمين في بكائِهم ووقوفِهم على القبرِ بدءًا من «فاطمةَ الزهراءِ بنتِ الرسولِ» و«عائشةَ بنتِ أبي بكرٍ الصديق» و«نائلةَ بنتِ الفرافصةِ» زوجِ «عثمانَ بنِ عفانَ» حتى غيرِهم من النساءِ١١.

المبحث الثالث
عاداتُ النساءِ في الرثاءِ

كانت العربُ في الجاهليةِ عندما يقومون بنعْيِ ميتًا، نرى حالةَ الحزن والأسى التي وقعت فيها النساءُ، فالمرأةُ إذا مات لها عزيزٌ أظهرت حزنَها عليه عن طريقِ حلقات الندبِ عليه، وحلقِ الرؤوسِ، وشق الجيوب، وضربِ الصدورِ بالنعالِ، ونياحتِهن، وفي ذلك يقول الدكتور «جواد علي»: ويصحب البكاءَ شقُّ الجيوبِ، وتعفيرُ الرأسِ بالترابِ، واجتماعُ النسوةِ أيامًا لندبِ الميتِ وذكرِ مناقبِه، تقوم بذلك نادباتٌ ممتهناتٌ أو غيرُهن ممنْ رُزِقْنَ موهبةَ القولِ في مثلِ هذه الأحوالِ من أفرادِ الأسرةِ أو القبيلةِ أو الحيِ أو القريةِ. وفي بيتٍ لـــ «طرفةَ بنِ العبدِ»" نجدُه يوصي بنعيه بما يستحقُه، وبشقِّ الجيبِ عليه، وقد يمتدُّ نعيُ الميتِ ورثاؤه حولًا كاملًا، وهي مدةُ عزاءِ أهلِ الجاهليةِ، فإذا انتهى الحولُ وقد بكّوْه البكاءَ الذي استحقّه الميتُ، عذر أقرباؤه عن الاستمرارِ في بكائِه إلا في المناسباتِ١٢.

فكانت «الخنساءُ» تبكي أخوَيْها «صخرًا» و«معاويةَ» وأباها أيضًا بهذه الطريقة، ثم أقلعت عنها، والذي يدل على ذلك: قيل إنَّ «عمرَ بنَ الخطابِ» دخل البيتَ الحرامَ فرأى «الخَنْسَاءَ» تطوفُ بالبيت محلوقةَ الرأسِ تبكي وتلطمُ خدَها وقد علقت نعلَ «صخرٍ» في خمارِها، فوعظَها فقالت: إني رُزئت فارسًا لم يرزأْ أحدٌ مثلَه.

فقال: إنَّ في الناسِ من هو أعظمُ مرزئةً منكِ، وإنّ الإسلامَ قد غطَّى ما كان قبله، وأنّه لا يحلُّ لك لطمُ وجهِك وكشفُ رأسِك، فكفَّت عن ذلك، وقالت ترثي أخويها «صخرًا» و«معاوية»١٣، ومن هذه القصيدةِ هذان البيتان(٥٥٩- ٥٦٠):

فَلا وَأَبيكَ ما سَلَّيتُ صَدري بِفاحِشَةٍ أَتَيتَ وَلا عُقوقِ
وَلَكِنّي وَجَدتُ الصَبرَ خَيرًا مِنَ النَعلَينِ وَالرَأسِ الحَليقِ

وعندما جاء الإسلامُ نهى عن هذه العاداتِ، فقال الرسول: (ليسَ مِنَّا مَن لَطَمَ الخُدُودَ، وشَقَّ الجُيُوبَ، ودَعَا بدَعْوَى الجَاهِلِيَّةِ)١٤، وجاء في صحيح البخاري: وَقَالَ «الْحَكَمُ بْنُ مُوسَى»: حَدَّثَنَا «يَحْيَى بْنُ حَمْزَةَ»، عَنْ «عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ جَابِرٍ»: أَنَّ «الْقَاسِمَ بْنَ مُخَيْمِرَةَ» حَدَّثَهُ قَالَ:حَدَّثَنِي «أَبُو بُرْدَةَ بْنُ أَبِي مُوسَى» قال: وَجِعَ «أَبُو مُوسَى» وجَعًا شَدِيدًا، فَغُشِيَ عليه ورَأْسُهُ في حَجْرِ امْرَأَةٍ مِن أَهْلِهِ، فَلَمْ يَسْتَطِعْ أَنْ يَرُدَّ عَلَيْهَا شيئًا، فَلَمَّا أَفَاقَ، قالَ: أَنَا بَرِيءٌ مِمَّنْ بَرِئَ منه رَسولُ اللَّهِ، إنَّ رَسولَ اللَّهِ : بَرِئَ مِنَ الصَّالِقَةِ والحَالِقَةِ والشَّاقَّةِ١٥.

ولكنَّ الإسلامَ دينُ يسرٍ حينَ منحَ النساءَ التعبيرَ عن الحزنِ بالبكاءِ المعتدلِ، فنجد «فاطمةَ بنتَ الرسولِ» تعبرُ عن فقدِ خيرِ البرية عن طريقِ شمِّ رائحتِه العطرةِ التي تخرجُ من القبرِ، وذلك في قولها (البيتين١١- ١٢):

مَاذَا عَلَى مَنْ شَمَّ تُرْبَةَ أَحْمَدٍ أَن لَا يَشَمَّ مَدَى الزَّمَانِ غَوَالِيَا
صُبَّتْ عَلَيَّ مَصَائِبٌ لَوْ أَنَّها صُبَّتْ عَلَى الأَيَّامِ عُدْنَ لَيَالِيَا

و«صفيةُ بنتُ عبدِ المطلبِ» تحزنُ حزنًا شديدًا على فقدِ خيرِ البشرِ، وتريدُ من «فاطمةَ الزهراءِ» أن تشاركَها ذلك الحزنَ، فتأمرُها بالبكاءِ على السيدِ الطيبِ الذي بموته أُوحِشت الأرضُ، واغبرّ آفاقُ السماءِ، وكوِّرَت شمسُ النهارِ، فكيف يطيبُ لهم العيشُ بعدَ موتِه، ونرى «صفيةَ» تذكرُ كلمةَ البكاءِ ثمانيَ مراتٍ، وهذه دلالة على حزنها الشديدِ لفقد الرسول، ولا نرى «صفيةَ بنتَ عبدِ المطلبِ» تفعلُ شيئًا من تلك العاداتِ التي كانت تحدث في الجاهليةِ، وذلك في قولها (الأبيات٣٣- ٣٤- ٣٥- ٣٦- ٣٧- ٣٨- ٣٩- ٤٠- ٤١- ٤٢- ٤٣)

أَفَاطِمَ بَكِيِّ وَلا تَسْأَمِي بِصُبْحِكِ، مَا طَلَعَ الْكَوْكَبُ!
هُوَ الْمَرْءُ يُبْكَى، وَحُقَّ الْبُكَاءُ! هُوَ الْمَاجِدُ السَّيِّدُ الطَّيِّبُ!
فَأَوْحَشَتِ الأَرْضُ مِنْ فَقْدِهِ وَأَيُّ الْبَرِيَّةِ لا يُنْكَبُ؟

فَمَا لِيَ بَعْدَكَ حَتَّى الْمَمَاتِ إلا الْجَوَى الدَّاخِلُ الْمُنْصِبُ
فَبَكِّي الرَّسُولَ! وَحُقَّتْ لَهُ شُهُودُ الْمَدِينَةِ وَالْغُيَّبُ!
لِتَبْكِيكَ شَمْطَاءُ مَضْرُورَةٌ، إِذَا حُجِبَ النَّاسُ لا تُحْجَبُ
لِيَبْكِيكَ شَيْخٌ أَبُو وِلْدَةٍ يَطُوفُ بِعَقْوَتِهِ أَشْهَبُ
وَيَبْكِيكَ رَكْبٌ إِذَا أَرْمَلُوا، فَلَمْ يُلْفَ مَا طَلَبَ الطُّلَّبُ
وَتَبْكِي الأَبَاطِحُ مِنْ فَقْدِهِ، وَتَبْكِيهِ مَكَّةُ وَالأَخْشَبُ
وَتَبْكِي وَعِيرَةُ مِنْ فَقْدِهِ بِحُزْنٍ وَيُسْعِدُهَا الْمِيثَبُ!
فَعَيْنِيَ مَا لَكِ لا تَدْمَعِينَ؟ وَحُقَّ لِدَمْعِكِ يُسْتَسْكَبُ!

أما «عاتكةُ بنتُ زيدٍ» ففزعَها نبأُ موتِ الرسولِ و لم تصدقْ ما حدث فجلجلَ موتُ النبيِّ قلبَ عاتكةَ مما جعلَها تفقدُ صوابَها ولا تشعرُ بما يحدثُ، فعاتكةُ ونساءُ النبي احمرَّت وجوهُهن واشتعلَت من ضربهن بالكفِّ حزنًا وألمًا عليه وهذا الفعلُ من «عاتكةَ» إنما نستثنيه نظرًا لأن المرثيَّ هو النبيُّ، وذلك في قولها (الأبيات٢٧-٢٨- ٢٩- ٣٠- ٣١- ٣٢- ٣٣- ٣٤).

أَمْسَتْ مَرَاكِبُهُ أَوْحَشَتْ، وَقَدْ كَانَ يَرْكَبُهَا زَيْنُهَا
وَأَمْسَتْ تُبَكِّي عَلَى سَيِّدٍ تُرَدِّدُ عَبْرَتَهَا عَيْنُهَا
وَأَمْسَتْ نِسَاؤُكَ مَا تَسْتَفِيقُ مِنَ الْحُزْنِ يَعْتَادُهَا دَيْنُهَا
وَأَمْسَتْ شَوَاحِبَ مِثْلَ النِّصَالِ قَدْ عُطِّلَتْ وَكَبَا لَوْنُهَا
يُعَالِجْنَ حُزْنًا بَعِيدَ الذَّهَابِ، وَفِي الصَّدْرِ مُكْتَنِعٌ حَيْنُهَا
يُضَرِّبْنَ بِالْكَفِّ حُرَّ الْوُجُوهِ عَلَى مِثْلِهِ جَادَهَا شُؤُنُهَا
هُوَ الْفَاضِلُ السَّيِّدُ الْمُصْطَفَى عَلَى الْحَقِّ مُجْتَمِعٌ دِينُهَا
فَكَيْفَ حَيَاتِيَ بَعْدَ الرَّسُولِ، وَقَدْ حَانَ مِنْ مَيْتَةٍ حِينُهَا؟

ويذكرنا هذا الموقفُ بما حدثَ مع «عمرَ بنِ الخطاب» حينما وقعَ هذا الخبرُ على مسمعِه، فلم يصدقْه، فرُويَ هذا الخبرُ في الطبقاتِ الكبرى: أخبرنا «يزيد بن هارون»، أخبرنا «حمّاد بن سَلَمة» عن «أبي عِمْران الجَوْني» عن «يزيد بن بَابَنُوس» عن «عائشة» قالت: لما تُوفّى رسول الله استأذن «عُمر» و«المُغيرة بن شُعْبة» فدخلا عليه فكَشَفا الثوبَ عن وجهه فقال «عمر»: وَا غَشْيَا! ما أشَدّ غَشْيَ رسول الله! ثمّ قاما فلمّا انتهيا إلى البابِ قال «المغيرة»: يا«عُمر» مات والله رسولُ الله! فقال «عمر»: كذبتَ! ما مات رسول الله ولكنّك رجلٌ تَحُوشُك فِتْنَةٌ ولَنْ يموت رسول الله حتى يُفْنِيَ اللهُ المنافقين.

أخبرنا «أبو بكر بنُ عبدِ اللهِ بنِ أبي أُويسٍ»، حدّثني «سليمانُ بنُ بلالٍ» عن «محمّدِ بنِ عبدِ اللهِ بن أبي عتيقٍ التّيْميّ» عن «ابنِ شهابِ الزّهريّ»، حدّثني «سعيد بن المسيّب» أنّه سمع «أبا هُريرة» يقول: دخل «أبو بكر» المسجدَ و «عمر بن الخطّاب» يكلّمُ الناسَ، فمضى حتى دخلَ بيتَ النّبيّ، الّذى تُوفّى فيه وهو في بيت «عائشة» فكشَفَ عن وجه النّبيّ، بُرْدَ حِبَرة كان مُسجّى به فنظرَ إلى وجهه ثمّ أكَبّ عليه فقبّله فقال: بأبي أنت! والله لا يجمعُ الله عليك الموتتَين، لقد مِتّ الموتةَ التي لا تَموت بعدها! ثمّ خرج «أبو بكر» إلى النّاس في المسجد و«عمر» يكلّمهم فقال «أبو بكر»: اجلس يا «عمر»! فأبَى «عُمَرُ» أن يجلس، فكلّمه «أبو بكر» مرّتين أو ثلاثًا، فلمّا أبَى «عمرُ» أن يجلس قام «أبو بكر» فتشَهّد، فأقبلَ النّاسُ إليه وتركوا «عمرَ»، فلمّا قضى «أبو بكر» تشهّدَه قال: أمّا بعد فمَن كان منكم يعبُد «محمّدًا» فإنّ «محمّدًا» قد مات، ومَن كان منكم يعبد اللّه فإنّ الله حيّ لا يموت! قال الله تبارك وتعالى: «وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ

قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلَى عَقِبَيْهِ فَلَنْ يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئًا وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ»١٦. فلمّا تلاها «أبو بكر» أيقَن النّاسُ بموت النّبيّ، وتلقّاها النّاسُ من «أبي بكر» حين تلاها أو كثيرٌ منهم حتَّى قال قائلٌ من النّاس: والله لكأنّ النّاسَ لم يعلموا أنّ هذه الآية أُنزلت حتَّى تلاها «أبو بكرٍ»١٧.

ولكن هذه العاداتُ لم نَرَهَا في عصرِ صدرِ الإسلامِ لحرمتِها ولكن ما وجدناه في نصِّ «عاتكةَ» إنما هو استثناء نظرًا لعظمةِ المرثي ومكانتِه العاليةِ صلوات الله عليه.

الخاتمة

وأخيرًا، فقد أوضحت الدراسة الفروق الأدائية للشاعرات في عصري الجاهلية وصدر الإسلام، وبينت أن للحياة الحياتية أثرها الواضح في كلا العصرين وما كان يحدث فيها من عادات وتقاليد ومعتقدات أثرت على نفس الشاعرة مما جعلها سببًا في تكوين قرائحهن الشعرية واختلافها بحسب العصرين

المصادر والمراجع

- دراسات في الأدب الإسلامي، لسامي مكي العاني، مطبعة المعارف، ١٩٦٨.
- ديوان الخنساء، تحقيق حمدو طماس، دار المعرفة، ط الثانية، ٢٠٠٤.
- الرثاء في الشعر الجاهلي وصدر الإسلام، رسالة لنيل درجة الماجستير أعدها حسين جمعة، بإشراف الأستاذ الدكتور عمر موسى باشا، جامعة أم القرى، ١٩٨٢.
- سنن أبي داود، لإمام أبي داود سليمان بن الأشعث الأزدي السجستاني(٥٢٧٥)، حقّقه وضبط نصّه وخرج أحاديثَه وعلقَ عليه شعيب الأرنؤوط ومحمد كامل قره بللي وعبد اللطيف حرز الله، دار الرسالة العالمية، ط الأولى، ٢٠٠٩م.

- صحيح البخاري، للإمام أبي عبدالله محمد بن إسماعيل البخاري الجعفي، ضبطه ورقمه وذكر تكرار مواضعه وشرح ألفاظه وجمله وخرج أحاديثه في صحيح مسلم ووضع فهارسه الدكتور مصطفى ديب البُغا، دار ابن كثير.
- الطبقات الكبرى، لمحمد بن سعد بن منيع الهاشمي البصري المعروف بابن سعد، دراسة وتحقيق محمد عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية، ط الأولى كاملة.
- العقد الفريد، للفقيه أحمد بن محمد بن عبد ربه الأندلسي(ت٣٢٨) ، حققه مفيد محمد قميحة، دار الكتب العلمية، ط الأولى، ١٩٨٣.
- المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، للدكتور جواد على، ساعدت جامعة بغداد على نشره، ط الثانية، ١٩٩٣.

الهوامش والإحالات :

[١] دراسات في الأدب الإسلامي، لسامي مكي العاني، مطبعة المعارف، ١٩٦٨، ص١٣٣.

[٢] البقرة (٢٧٢).

[٣] الحجرات (١٣).

[٤] سنن أبي داود، لإمام أبي داود سليمان بن الأشعث الأزدي السجستاني(٢٧٥ه)، حقّقه وضبط نصّه وخرج أحاديثَه وعلقَ عليه شعيب الأرنؤوط ومحمد كامل قره بللي وعبد اللطيف حرز الله، دار الرسالة العالمية، ط الأولى، ٢٠٠٩م، ج٧، ص٦٤.

[٥] المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام ج٥ ص٤٨٤.

[٦] الأنفال (٤٦).

[٧] التوبة (٣٣).

[٨] الفتح (٢٩).

[٩] الرثاء في الشعر الجاهلي وصدر الإسلام، رسالة لنيل درجة الماجستير أعدها حسين جمعة، بإشراف الأستاذ الدكتور عمر موسى باشا، ص١٢٧.

[١٠] الرثاء في الشعر الجاهلي وصدر الإسلام ص٢٠٠.

[١١] العقد الفريد ج٣ ص١٩٤، ١٩٧، ١٩٩.

[١٢] المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام ج٥ ص١٥٤.

[١٣] ديوان الخنساء ص٨٧.

[١٤] صحيح البخاري، للإمام أبي عبدالله محمد بن إسماعيل البخاري الجعفي، ضبطه ورقمه وذكر تكرار مواضعه وشرح ألفاظه وجمله وخرج أحاديثه في صحيح مسلم ووضع فهارسه الدكتور مصطفى ديب البُغا، دار ابن كثير، ج١ ص٤٣٥.

[١٥] المصدر نفسه ج١ ص٤٣٦.

[١٦] آل عمران (١٤٤).

[١٧] الطبقات الكبرى ج٢ ص٢٠٥.